حديث القرآن الكريم عن طيبة الطيبة

دراسة موضوعية

د. ريان أحمد محرم الشيخ ناجي عبد السند

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات القرآنية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة المدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية

والمدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بأسيوط جامعة الأزهر الشريف بجمهورية مصر العربية

ملخص البحث

اعتنى القرآن الكريم بالحديث عن (طيبة الطيبة) في غير ما موضع منه، فذكرها باسم (المدينة) وهو الاسم الذي سميت به بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها في أربعة مواضع، وورد ذكرها باسم (يثرب) في موضع واحد، وورد ذكرها باسم (الدار والإيمان) في موضع واحد، وورد ذكرها تلميحاً أو إبهاما عينه بعض المفسرين بها، فذكروا أنها: (حسنة الدنيا)، و(بيت النبي)، و(مدخل صدق)، وأن القرآن سماها مرة: (الأرض)، ومرة (القرية)، ومرة (السبيل). وقد قمت في هذا البحث بجمع كل الآيات التي ذكر المفسرون أن فيها إشارة الى المدينة المنورة، وحاولت تحرير القول في صحة ذلك من عدمه، مع الإشارة إلى بعض ما في تلك الآيات من الفوائد والهدايات. وقد سرت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي للآيات القرآنية الكريمة محل البحث، وأقوال المفسرين فيها.

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم – طيبة – المدينة المنورة – الدار – مدخل صدق

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد ﷺ خير خلقك وخاتم أنبيائك ورسلك، أرشدت به الخلق، وهديت به إلى الحق، ومحوت به سبل الضلالة والفسق، وأرسلته رحمة للعالمين، وأخرجتنا به من الظلمات إلى النور، وأنقذتنا به من الهلكة، وجعلتنا به خير أمة أخرجت للناس، وهديتنا به إلى الصراط المستقيم .

فاللهم صل عليه كلما ذكره الذاكرون، وصل عليه كلما غفل عن ذكره الغافلون أفضل وأكثر وأزكى وأعظم ما صليت على أحدٍ من خلقك، وزكنا بالصلاة عليه أفضل ما زكيت أحدا من أمته بالصلاة عليه، وارض اللهم عن أوليائه و أصحابه وأتباعه وأحبابه الذين اقتفوا أثره وانتهجوا نهجه وارتسموا هديه واتبعوا طريقته وساروا على دربه إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إن (المدينة المنورة) –على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التحية – هي سيدة البلدان بعد البلد الحرام، ومأرز الإيمان، ومهبط الوحي ، ومهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، ومقام الذين تبوءوا الدار والإيمان، فضائلها لا تحصى ، ومناقبها لا تستقصى ، ويكفيها تشرفها بضم جسد أشرف مخلوقات الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين

لهذا فضلها الله سبحانه وتعالى على سائر البقاع والأماكن – بعد مكة المكرمة–، وشرفها ورفع قدرها وأعلى مكانتها ومنزلتها، وجعلها حرماً كحرم مكة الآمن، روى مسلم في صحيحه(2003) من حَديث أَبي سَعيد الخُدْريِّ رضي اللهُ عنه: أَنَّ النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَمًا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ حَرَامًا، مَا بَيْنَ مَأْزِمَيْهَا، أَنْ لَا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، وَلَا تُخْبَطَ فِيهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلْفٍ"(كتاب الحجّ، باب (86): التّرغيب في سكنى المدينة والصّبر على لأوائها، رقم(1374))

وروى مسلم (2003) في صحيحه من حَديث فَاطِمَةَ بنت قَيسٍ رضي اللهُ عنها أنه صلى اللهُ عليه وسلم قال: "هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ يَعْنِي الْمَدِينَةَ"،(كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب(24):

قصّة الجسّاسة، رقم(2942)) وفي رواية البخاري(2010): "هَذِهِ طَابَةَ"(كتاب فضائل المدينة، باب(3): المدينة طابة، رقم(1872)).

قال ابن حجر رحمه الله(د.ت).: " وَالطَّابُ وَالطِّيبُ لُغَتَانِ بِمَعْنًى وَاشْتِقَاقُهُمَا مِنَ الشَّيْءِ الطَّيِّبِ وَقِيلَ لِطَهَارَةِ تُرْبَتِهَا وَقِيلَ لِطِيبِهَا لِسَاكِنِهَا وَقِيلَ مِنْ طِيبِ الْعَيْشِ بِهَا وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَفِي طِيبِ تُرَابِهَا وَهَوَائِهَا دَلِيلٌ شَاهِدٌ عَلَى صِحَّةِ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ لِأَنَّ مَنْ أَقَامَ بِهَا يَجِدُ مِنْ تُرْبَتِهَا وَحِيطَانِهَا رَائِحَةً طَيِّبَةً لَا تَكَادُ تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا وَقَرَأْتُ بِخَطِّ أَبِي عَلِيٍّ الصَّدَفِيِّ فِي هَامِشِ نُسْخَتِهِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِخَطِّهِ قَالَ الْحَافِظُ أَمْرُ الْمَدِينَةِ فِي طِيبِ تُرَابِهَا وَهَوَائِهَا يَجِدُهُ مَنْ أَقَامَ بِهَا وَيَجِدُ لِطِيبِهَا أَقْوَى رَائِحَةٍ وَيَتَضَاعَفُ طِيبُهَا فِيهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ وَكَذَلِكَ الْعُودُ وَسَائِرُ أَنْوَاعِ الطِّيبِ"(فتح الباري89/4).

وكيف لا يتضاعف طيبها، ولا ينتشر شذى عبيرها الفواح ومسكها الوضاح ، وقد تنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم هواءها ، ومشى على ثراها ، وطاب به حياً وميتاً آكامها ووديانها وسهولها وجبالها وكل ذراها.

ولله در القائل –كما حكاه ابن كثير (2002) والسمهودي (1419):

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه *** فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه *** فيه العفاف وفيه الجود والكرم

(تفسير ابن كثير: 471/1، وفاء الوفا 18/4

ولفضل المدينة ومكانتها السامية ورد ذكرها في القرآن الكريم في آيات عديدة ، فورد ذكر اسمها المشهور الذي عرفت به بعد تشرفها بهجرة رسول الله صلى الله عله وسلم إليها، وهو المدينة المنورة في أربعة مواضع، منها قوله تعالى: وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢

[التوبة:120 - 121].

وورد اسمها التاريخي الذي عرفت به قبل الهجرة (يثرب) مرة واحدة على لسان طائفة من المنافقين: وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

[الأحزاب: 13]

وبعض تلك التعيينات بعيدة لا تصلح للتعيين كما في تعيينهم للقرية في قوله تعالى: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

[النحل: 112] أنها المدينة، وهو قول ظاهر البعد.

ولذلك عزمت بعد طلب توفيق الله تعالى على الكتابة في هذا الموضوع ، محاولا جمع كل ما ذكر المفسرون تعيينه بأنه المدينة إضافة إلى ما جاء صريحاً في القرآن الكريم.

خطة البحث:

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة،

أما المقدمة فضمنتها أهمية البحث وخطته والمنهج المتبع فيه.

وأما الفصل الأول فهو بعنوان: حديث القرآن الكريم الصريح عن المدينة المنورة، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: (المدينة)

المبحث الثاني: (الدار)

المبحث الثالث: (يثرب)

وأما الفصل الثاني فهو بعنوان : مبهمات القرآن التي عينت بأنها المدينة المنورة، وتحقيق القول فيها، وقد اشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: (بيت النبي)

المبحث الثاني: (مدخل صدق)

المبحث الثالث: (حسنة)

المبحث الرابع: (الأرض)

المبحث الخامس: (السبيل)

المبحث السادس: (القرية)

الخاتمة: وقد ضمنتها أهم النتائج والتوصيات.

وقد سرت في هذا البحث على المنهج التالي:

أولا: جمعت الآيات التي هي محل الدراسة وقمت بعزوها إلى مواضعها من القرآن الكريم

ثانيا: استعنت بمجموعة من كتب التفسير وعلوم القرآن ، ووثقت الأقوال من مصادرها

ثالثا: كتبت المراجع والمصادر وفق ترتيب (APA) (الجمعية الأمريكية السيكولوجية)

رابعا: خرجت الأحاديث من مصادرها الأصيلة وما كان منها في غير الصحيحين فقد اجتهدت في الحكم عليه وفق قواعد الجرح والتعديل المعتبرة لدى العلماء

خامسا: اعتمدت في البحث على المنهج التحليلي الاستنباطي في تحليل الآيات الكريمة بالكشف عن سياقها وملابساتها،وإبراز ما تدل عليه من فضائل ومناقب للمدينة وأهلها .

سادسا: حاولت الترجيح بين الأقوال المختلفة معتمداً في ذلك على قواعد الترجيح المعتبرة عند العلماء

وأسأل الله التوفيق والسداد والعون والهدى والرشاد

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفصل الأول

حديث القرآن الكريم الصريح عن المدينة المنورة

المبحث الأول: (المدينة)

ورد ذكر لفظ (المدينة) في القرآن الكريم في مواضع متعددة ، بعضها لا يقصد به المدينة المنورة، كقوله تعالى: أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ [النمل: 48]، وغيرها من الآيات الكريمة التي يعين المراد بـــ(المدينة) فيها حسب سياقها القصصي التاريخي.

ولكن ورد ذكر الاسم مقصوداً به المدينة المنورة في أربعة مواضع في القرآن الكريم، نعيش الآن في رحابها محاولين استخلاص ما يتعلق ب(طيبة) الطيبة فيها من دروس وهدايات:

الموضع الأول: قال الله تعالى : فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ [التوبة: 101]

تجيئ هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن أصناف الناس أعرابهم وحضرهم وتقسيمهم إلى مؤمنين ومنافقين وكفار : ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

[التوبة: 97-99].

والأعراب هم البدو الذي يسكنون البادية ولا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة ، فالظاهر أن المراد بهم سكان البوادي القريبة من المدينة المنورة ، قال الأزهري: (2001)" وَلَا يجوز أَن يُقَال للمهاجرين وَالْأَنْصَار: أَعْرَاب، إِنَّمَا هم عرب؛ لأَنهم استوطنوا القُرَى الْعَرَبيَّة وَسَكنُوا المُدُن، سَوَاء مِنْهُم الناشىء بالبَدْو ثمَّ استوطن الْقرى، والناشىء بِمَكَّة ثمَّ هَاجر إِلَى الْمَدِينَة. فَإِن لحقت طائفةٌ مِنْهُم بِأَهْل البَدْو بعد هجرتهم واقتنوا نَعَماً ورعَوا مساقط الْغَيْث بَعْدَمَا كَانُوا حَاضِرَة أَو مهاجرة قيل: قد تعرّبوا أَي صَارُوا أعراباً بَعْدَمَا كَانُوا عَرَباً." (218/2).

والتقسيم الوارد في الآيتين الكريمتين التاليتين لآية (ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا) دليل واضح على إفادة عدم العموم، فليس كل الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وهو مما يمثل به للفظ العام الذي يراد به الخاص، وإنما المراد أن الكافر والمنافق من الأعراب أشد عتوا وإجراما من كفار ومنافقي الحضر والمدن، وذلك لجفاء صدورهم ونبو طباعهم كما يقول الواحدي (2009)(13/11).رحمه الله.

وبعد الحديث عن الأعراب وأصنافهم جاء الثناء على المؤمنين من أهل المدينة المنورة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وبشارتهم برضوان الله عليهم وعلى من تبعهم بإحسان : وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠ [التوبة: 100].

وجملة (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ .....) مبتدأ ، والخبر هو جملة (رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ .....) ، ورضاه سبحانه عليهم بسبب إيمانهم وطاعتهم وعبوديتهم له سبحانه وتعالى، يقول الطبري (2001) رحمه الله :"يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ أَوَّلًا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا قَوْمَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ وَفَارَقُوا مَنَازِلَهُمْ وَأَوْطَانَهُمْ، وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ} يَقُولُ: وَالَّذِينَ سَلَكُوا سَبِيلَهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْهِجْرَةِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، طَلَبَ رِضَى اللَّهِ"، "رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ لِمَا أَطَاعُوهُ وَأَجَابُوا نَبِيَّهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ لِمَا أَجْزَلَ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ وَإِيمَانِهِمْ بِهِ وَبِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ يَدْخُلُونَهَا خَالِدِينَ فِيهَا لَابِثِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}»(637/11، 642)

وفي الآية الكريمة محل الدراسة عودة إلى الحديث عن المنافقين ، وكأن فيها تصحيحاً لفهم خاطئ قد يرد على الأذهان، من ترتيب الآيات ، وهو أن النفاق قاصر على الأعراب، وأن المدينة وأهلها ليس

فيها نفاق أو منافقون، أو حتى وإن كان فيهم منافقون فهو نفاق يسير ليس كنفاق الأعراب، هذا الفهم الخاطئ ترده الآية الكريمة بوضوح وجلاء، تثبت النفاق لطائفة من أهل المدينة بل وتساوي بينهم وبين من حول المدينة من منافقي الأعراب في شدة التمرد والمهارة في النفاق والإصرار عليه: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ [التوبة: 101] .

إن المكان لا يقدس أحداً ، ولا يرفع مكانة العبد عند الله إلا التقوى والعمل الصالح ، وإذا كانت المدينة طيبة طيب أهلها، بما سبق ذكره من أدلة ونصوص نبوية كريمة؛ فإنها وفي أطهر العصور وأنقاها لم تخل من المنافقين الذين بلغوا في النفاق شأوا لا يبارى ومنزلة لا تطال عياذا بالله تعالى منهم ومن أحوالهم، يقول أبو السعود (د.ت) في تفسير جملة: {مَرَدُواْ عَلَى النفاق} " أي ومن أهل المدينة قومٌ مردوا على النفاق أي تمهّروا فيه من مرَن فلانٌ على عمله ومرَد عليه إذا درب به وضرِي حتى لانَ عليه ومهَر فيه غير أن مرَدَ لا يكادُ يُستعمل إلا في الشر"(97/4).

وهل التمرد شامل للفريقين ، منافقي الأعراب ومنافقي المدينة ، أو هو خاص بمنافقي أهل المدينة؟ خلاف حكاه أبو السعود(د.ت) ورجح أنه خاص بمنافقي أهل المدينة(97/4).

فهم كما يقول أبو زهرة (د.ت) " منافقون أتقنوا النفاق وأجادوه، حتى إنهم ليحسنون إخفاء ما في بطونهم، فلا تعرفهم في لحن القول، كما تعرف غيرهم ممن تكشف بعض أمرهم، فقال الله تعالى عنهم: (. . . وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ. . .)، ولقد قال للنبي – صلى الله عليه وسلم –: (لا تَعْلَمُهُمْ) أي مع فطنتك وقوة حسك، (نَحْنُ نَعْلَمُهم)"(3428/4-3427).

وقوله تعالى (سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ) يحتمل كما يقول السعدي(2000) : أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة. ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار، ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرره". (350).

والآية الكريمة تطمئن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة معه بأن الله يعلمهم وسيحاسبهم على أعمالهم ويعذبهم مرتين في الدنيا ، قبل عذاب الآخرة .

وجملة القول: أن المنافقين موجودون في كل عصر وفي كل مصر، وأن المدينة المنورة وهي أطهر البقاع وفي أطهر العصور لم تخل منهم بل من مردهم وحذاقهم الذين يمعنون الكيد للأمة والمكر بها ، فعلى المسلمين أن يحذروهم وألا يخدعوا بزخرف قولهم. وأن يتفطنوا لمكرهم وتدبيرهم . والله خاذلهم ومبطل كيدهم كما أبطل كيد أسلافهم. حفظ الله الأمة منهم ومن مكرهم.

الموضع الثاني: قال تعالى: مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ [التوبة: 120-121].

تعاتب الآيتان الكريمتان المتخلفين عن الجهاد والغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والظاهر أن هذا العتاب للمتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، وقد كان الحديث قبلها عن الثلاثة الذين خلفوا وتوبة الله عليهم بصدقهم، وختام الله لقصتهم بأمره للمؤمنين بملازمة الصدق وأهله.

ثم تأتي هذه الآية الكريمة لتكون -كما يقول الشوكاني (1993م)-: زِيَادَةُ تَأْكِيدٍ لِوُجُوبِ الْغَزْوِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَحْرِيمِ التَّخَلُّفِ عَنْهُ، أَيْ: مَا صَحَّ وَمَا اسْتَقَامَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ كَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ وَغِفَارٍ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَإِنَّمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُمْ قَدِ اسْتُنْفِرُوا فَلَمْ يَنْفِرُوا، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْتَنْفَرُوا مَعَ كَوْنِ هَؤُلَاءِ لِقُرْبِهِمْ، وَجِوَارِهِمْ أَحَقَّ بِالنُّصْرَةِ وَالْمُتَابَعَةِ لِرسول اللهِ صلّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ أَيْ: وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ فَيَشِحُّونَ

بِهَا وَيَصُونُونَهَا، وَلَا يَشحُّونَ بِنَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ وَيَصُونُونَهَا كَمَا شَحُّوا بِأَنْفُسِهِمْ وَصَانُوهَا، يُقَالُ:رَغِبْتُ عَنْ كَذَا أَيْ: تَرَفَّعْتُ عَنْهُ، بَلْ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكَابِدُوا مَعَهُ الْمَشَاقَّ، وَيُجَاهِدُوا بَيْنَ يَدَيْهِ أَهْلَ الشِّقَاقِ، وَيَبْذُلُوا أَنْفُسَهُمْ دُونَ نَفْسِهِ. وَفِي هَذَا الْإِخْبَارِ مَعْنَى الْأَمْرِ لَهُمْ مَعَ مَا يُفِيدُهُ إِيرَادُهُ عَلَى هَذِهِ الصِّيغَةِ مِنَ التَّوْبِيخِ لَهُمْ، وَالتَّقْرِيعِ الشَّدِيدِ، وَالتَّهْيِيجِ لَهُمْ، وَالْإِزْرَاءِ عَلَيْهِمْ. وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ذلكَ إِلَى مَا يُفِيدُهُ السِّيَاقُ مِنْ وُجُوبِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ: ذَلِكَ الْوُجُوبُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ مُثَابُونَ عَلَى أَنْوَاعِ الْمَتَاعِبِ، وَأَصْنَافِ الشَّدَائِدِ. وَالظَّمَأُ: الْعَطَشُ، وَالنَّصَبُ: التَّعَبُ، وَالْمَخْمَصَةُ: الْمَجَاعَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي يَظْهَرُ عِنْدَهَا ضُمُورُ الْبَطْنِ".(472/2).

إن الآية الكريمة دعوة للمؤمنين في كل زمان ومكان إلى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في بذل الروح في سبيل الله، لنشر هذا الدين، وإعلاء كلمة الله ، وهي تعلم المؤمنين إيثاره صلى الله عليه وسلم وتقديمه على النفس والمال والولد. وإذا كان ي صلى الله عليه وسلم يجاهد بنفسه ويبذل روحه الشريفة للأهوال والشدائد، فعلى المؤمنين أن يتابعوه على ذلك ولا يتخلفوا عنه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، يقول الزمخشري (1987): "أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها أعزُ نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنا، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية"(321/2).

فالآيتان الكريمتان تحرضان المؤمنين على الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبينان أن كل ما يلاقيه المؤمنون من تعب ونصب ومشقة لا يضيع عند الله وسيجازيهم عليه أحسن الجزاء وأوفاه.

وينبغي أن ننتبه هنا لأمرين مهمين:

الأول: أن هذا العتاب لأهل المدينة ومن حولهم لا يقلل من شأنهم ، ولا ينقص من قدرهم، بل ينبغي فهمه في سياق تربيتهم التربية الإيمانية الصحيحة التي جعلتهم خير القرون وأفضل الخلق بعد أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

والثاني : أن هذا الأجر والثواب الحاصل للمجاهدين في سبيل الله ليس قاصراً على أهل المدينة المجاهدين مع رسول الله ، بل هو عام في كل مجاهد في سبيل الله يريد إعلاء كلمة الله ونشر دين الله جل في علاه، فهو إنما يقتدي في ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وبصحابته الأجلاء من أهل طيبة الطيبة رضي الله عنهم وأرضاهم.

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ [الأحزاب: 60-62]

اشتملت هذه الآيات الكريمة على وعيد شديد لثلاثة أصناف من الناس، أو لثلاثة أمراض من الأمراض التي قد تجتمع في شخص واحد، وهي النفاق ومرض القلب والإرجاف في المدينة، يقول الرازي (1999م) مبينا الصلة بين هذه الآية وبين سباقها: " لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْمُشْرِكِ الَّذِي يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالْمُجَاهِرِ الَّذِي يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، ذَكَرَ حَالَ الْمُسِرِّ الَّذِي يُظْهِرُ الْحَقَّ وَيُضْمِرُ الْبَاطِلَ وَهُوَ الْمُنَافِقُ، وَلَمَّا كَانَ الْمَذْكُورُ مِنْ قَبْلُ أَقْوَامًا ثَلَاثَةً نَظَرًا إِلَى اعْتِبَارِ أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ: وَهُمُ الْمُؤْذُونَ اللَّهَ، وَالْمُؤْذُونَ الرَّسُولَ، وَالْمُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ، ذَكَرَ مِنَ الْمُسِرِّينَ ثَلَاثَةً نَظَرًا إِلَى اعْتِبَارِ أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ أَحَدُهَا: الْمُنَافِقُ الَّذِي يُؤْذِي اللَّهَ سِرًّا وَالثَّانِي: الَّذِي/ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ الَّذِي يُؤْذِي الْمُؤْمِنَ بِاتِّبَاعِ نِسَائِهِ وَالثَّالِثُ: الْمُرْجِفُ الَّذِي يُؤْذِي النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِرْجَافِ بِقَوْلِهِ غُلِبَ مُحَمَّدٌ وَسَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَسَيُؤْخَذُ، وَهَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانُوا قَوْمًا وَاحِدًا إِلَّا أَنَّ لَهُمْ ثَلَاثَ اعْتِبَارَاتٍ وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ [الْأَحْزَابِ: ٣٥] حَيْثُ ذَكَرَ أَصْنَافًا عَشَرَةً، وَكُلُّهُمْ يُوجَدُ فِي وَاحِدٍ، فَهُمْ وَاحِدٌ بِالشَّخْصِ كَثِيرٌ بِالِاعْتِبَارِ".(184/25).

فالرازي رحمه الله يرى أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، وهو ما ذكره القرطبي (2005)ونسبه لأهل التفسير(245/14)، ولكن الزمخشري (1987) رأى أنها أوصاف لطوائف متعددة من الناس، فالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. وقيل: هم الزناة وأهل الفجور من قوله

تعالى فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ. وَالْمُرْجِفُونَ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: أرجف بكذا، إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت، من الرجفة وهي الزلزلة. والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم وتنوؤهم ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها إِلَّا زمنا قَلِيلًا ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم، فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز (560/3)

وأيما كان فالوعيد حاصل لمن قامت به خصلة من هذه الخصال أو وجدت به كلها، فهي كلها أمراض تفتك بالمجتمع إن تفشت فيه وتعصف باستقراره وثباته، لهذا حذر الله أهل المدينة من الاتصاف بتلك الصفات، وتوعد من كان متصفا بذلك بالطرد والإبعاد من المدينة المنورة ، بل بالطرد والإبعاد من رحمة الله والقتل والتنكيل بهم بما أفسدوا في المجتمع وحاربوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

الموضع الرابع: قال تعالى: يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

[المنافقون: 8]

القائل لهذه المقولة الفاسدة هو عبد الله بن أبي رأس المنافقين، ويعني بالأعزّ: نفسه، وبالأذلّ: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومراده بالرجوع رجوعهم من غزوة بني المصطلق،ذكره البغوي (2002)(ص1318).

قال الشوكاني(1993) " وَإِنَّمَا أُسْنِدَ الْقَوْلُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ مَعَ كَوْنِ الْقَائِلِ هُوَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، لِكَوْنِهِ كَانَ رَئِيسَهُمْ وَصَاحِبَ أَمْرِهِمْ، وَهُمْ رَاضُونَ بِمَا يَقُولُهُ سَامِعُونَ لَهُ مُطِيعُونَ. ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى قَائِلِ تِلْكَ الْمَقَالَةِ فَقَالَ: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ أَيِ: الْقُوَّةُ وَالْغَلَبَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَلِمَنْ أَفَاضَهَا عَلَيْهِ مِنْ رُسُلِهِ وَصَالِحِي عِبَادِهِ لَا لِغَيْرِهِمْ".(277/5)

إن الآية الكريمة تصحح مفهوم العزة الذي ينبغي أن يسود المجتمع المسلم في كل مكان كما ساد مجتمع المدينة، حين صحح القرآن ذلك المفهوم الخاطئ للعزة الذي حاول ابن أبي أن يذيعه ويفرضه في المدينة،

قال القرطبيّ (٢٠٠٥):" توهّموا أنّ العزّة بكثرة الأموال والأتباع، فبيّن الله أنّ العزّة والمنعة والقوّة لله" (١٨\84).

المبحث الثاني : (الدار)

قال تعالى: وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةَ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩

[الحشر: 9]

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق الثناء على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقد سبقها الحديث عن المهاجرين من أهل مكة الذين فارقوا أموالهم وديارهم إعلاء لكلمة الله وطلباً لمرضاته سبحانه وتعالى: لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨

[الحشر: 8].

والّذين تبوّؤا الدّار والإيمان: معطوف على المهاجرين، والمراد بهم الأنصار الّذين تبوّؤا المدينة قبل المهاجرين إليها، وآثروا الإيمان وابتنوا فيها المساجد قبل قدوم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليها بسنتين، والتّبوّؤ النّزول في المكان، ومنه المُباءة للمترل، ونسبته إلى الدّار، والمراد بها المدينة ظاهر. قال ابن عطية (٢٠٠١):" أثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأنّهم يحبّون المهاجرين، وبأنّهم يؤثرون على أنفسهم وقد وقوا شحّ أنفسهم لأنّه مقتضى قوله:{ومن يوق شحّ نفسه}" (٥\287)، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا آثروا به إخوانهم من الأنصار، والحاجة هنا: الحسد، قاله الحسن.

قال الطّبريّ (٢٠٠٢):" يقول تعالى ذكره:{والّذين تبوّءوا الدّار والإيمان} يقول: اتّخذوا المدينة، مدينة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فابتنوها منازل" (١٤\52).

ويذكر الزمخشري وجوه عطف الإيمان على الدار مع أن التبؤو في الأصل لا يكون للأمور المعنوية، فهو بمعنى النزول كما سبق، فيقول الزمخشري (1987): "فإن قلت: ما معنى عطف الإيمان على الدار، ولا يقال: تبوّؤا الإيمان؟ قلت: معناه تبوّؤا الدار وأخلصوا الإيمان، كقوله: علفتها تينا وماء باردا. أو: وجعلوا الإيمان مستقرا ومتوطنا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا المدينة كذلك. أو: أراد دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه. أو سمى المدينة لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان".(504/4-505).

إن الآية الكريمة تثني على أهل المدينة من الأنصار وتذكر من صفاتهم ما هو جدير بالاقتداء والتأسي بهم فيه، ومن ذلك حبهم لإخوانهم المؤمنين من المهاجرين، وتقديمهم لهم على أنفسهم ، وايثارهم، ومواساتهم بأموالهم ودورهم مع سلامة القلوب، وغير ذلك من الصفات الفاضلة والمناقب الكاملة التي تحلى بها الأنصار رضوان الله عليهم لأسباب ذكرها القاشاني فيما نقله عنه القاسمي(1997)، وهي: "تجرّدهم وتوجّههم إلى جناب القدس، وترفّعهم عن مواد الرجس، وكون الفضيلة لهم أمرا ذاتيا، باقتضاء الفطرة، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة، والأعوان في الطريقة. فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم، لمكان الفتوّة، وكمال المروّة، ولقوة التوحيد، والاحتراز عن حظ النفس" (187/9).

قال الطاهر بن عاشور(1984): "وهو يفيد الثناء عليهم بأن دار الهجرة دارهم آووا إليها المهاجرين لأنها دار مؤمنين لا يماثلها يومئذ غيرها..... وفي ذكر الدار (وهي المدينة) مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة بحيث جعل تبوأهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان، ولعل هذا هو الذي عناه مالك رحمه الله فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق. فقال: إن المدينة تبوئت بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف ثم قرأ.

وجملة يحبون من هاجر إليهم حال من الذين تبوؤوا الدار، وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم".(91/28)

فهنيئا لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوؤها بالإيمان والهجرة ، وهنيئا لأهلها هذا الثناء الرباني الفريد عليهم. وكفى بأخوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم –مهاجرين وأنصار– دليلاً على تلك المحبة الربانية التي ألف الله بها بين قلوبهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ [الأنفال: 63].

وكما حملت آيات سورة التوبة –التي سبق الحديث عنها – البشرى للتابعين للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار برضوان الله عليهم، كذلك جاءت آيات الحشر مبشرة بإمكان اتباع الخلف للسلف والاقتداء بهم والسير على منوالهم: وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: 10]

قال الشهاب.(د.ت).: "والمراد بدعاء اللاحق للسابق، والخلف للسلف إنهم متبعون لهم أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم، ويذكروهم بالخير".(179-8)

فاللهم ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم

اللهم آمين آمين آمين يا رب العالمين

المبحث الثالث: (يثرب)

ورد تسميتها بهذا الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان طائفة من المنافقين وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ (الأحزاب: 12-13)

والآيات الكريمة تتحدث عن موقف المنافقين من غزوة الأحزاب ، وهو التخويف والتثبيط والتخذيل للمؤمنين عن الجهاد في سبيل الله والدفاع عن المدينة المنورة،

وقد جاء في تاريخ المدينة لابن شبّة (١٩٧٩):" وابن يحي، عن عبد الله بن سفيان، عن أبيه، عن أفلح مولى أبي أيوب، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي أن يقال للمدينة يثرب. (165/١).

وقال الحافظ في الفتح (د.ت.) بعد ان أورد هذا الحديث: " وسبب هذه الكراهة لأن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة أو من الثرب وهو الفساد وكلاهما مستقبح "(87/٤)

وإذ قالت طائفة: يعني من المنافقين، وكأن القائلين اختاروا اسم (يثرب) من بين الأسماء مخالفة له صلّى الله عليه وسلم لما علموا من كراهيته عليه الصلاة والسلام لهذا الاسم من بينها، قال ابن الجوزيّ (٢٠٠٢):" وفي القائلين لهذا منهم قولان: أحدهما عبد الله بن أبيّ وأصحابه، قاله السّدّي. والثّاني: بنو سالم من المنافقين، قاله مقاتل" (ص١١١٦). قالوا: يا أهل يثرب، وهي اسم أرض ومدينة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل مقدمه إليها، قال ابن عطية (٢٠٠١):" ويثرب قطر محدود، المدينة في طرف منه" (٤\373)، لا مقام لكم يثبّطون المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بالمسلمين حتّى عسكروا بسلع، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم، فأشارت اليهود عليهم بالهروب، ونقل القرطبيّ (٢٠٠٥) عن ابن عبّاس:" قالت اليهود لعبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الّذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه! فارجعوا إلى المدينة فإنّا مع القوم فأنتم آمنون" (١٤\٩٧).

الفصل الثاني : مبهمات القرآن التي عينت بأنها المدينة المنورة وتحقيق القول فيها

المبحث الأول: (بيت النبي)

قال الله تعالى: كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ [الأنفال: 5]

الآية الكريمة كما هو واضح في خروج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة إلى غزوة بدر، فتعيين البيت بأنه المدينة ليس بعيداً، فحتى ولو كان المراد بالبت حقيقته ؛ فإن بيته صلى الله عليه وسلم جزء من المدينة.

وقد روى الطبري (2002) عدة آثار في أن المراد بالبيت المدينة، عن ابن أبي بزة ومحمد بن عبّاد بن جعفر في قوله:{كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ }قال: من المدينة إلى بدر. (٦\228-٢٢٧).

وقال الواحديّ (٢٠٠٩):" {من بيتك} يعني المدينة، قاله مجاهد والحسن وابن جريج، وعامّة المفسّرين" (١٠\30).

وقال الواقدي (١٩٨٩):" وأخبرني ابن جريج، عن محمّد بن عبّاد بن جعفر المخزوميّ في قوله:{من بيتك} قال: من المدينة"(١\131). وذكره أيضا: الألوسي (١٩٩٤)، (٥\158)؛ البغويّ (٢٠٠٢)، (ص٥١٢)؛ البيضاويّ (١٩٩٧)، (٣\50)؛ ابن الجوزيّ (٢٠٠٢)، (ص٥٤١)؛ الخازن (١٩٩٥)، (٢٩٤)؛ ابن أبي زمنين (٢٠٠٢)، (٢\166)؛ السّمعانيّ (١٩٩٧)، (٢\248)؛ السّيوطيّ (د.ت.)، (٤\14)؛ القاسميّ (١٩٩٧)، (٥\259)؛ القسطلّاني (٢٠٠٢)، (٣\333)؛ الماورديّ (د.ت.)، (٢\295)؛ النّسفيّ (١٩٩٨)، (١\631)؛ النّعمانيّ (١٩٩٨)، (٩\454)؛ الواحديّ (١٩٩٤أ)، (٢\444). وهو كما قلت ليس بعيداً.

المبحث الثاني: (مدخل صدق)

قال الله تعالى : وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠

[الإسراء:80]

والحديث عند أحمد (٢٠٠١) عن جرير به برقم١٩٤٨. وضعّفه شعيب الأرناؤوط لضعف قابوس عن أبي ظبيان. ولكن صحّحه أحمد شاكر(١٩٩٥).

وأخرجه الحاكم (١٩٩٠) برقم(٤٢٥٩) وقال:" هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرّجاه" وصحّحه الذّهبيّ في تعليقه على المستدرك.

وحكى الطبري (2002) أقوالاً في الآية الكريمة ثم قال مرجحاً:" وأشبه هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: معنى ذلك: وأدخلني المدينة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق".(57/15)

وعلل الطبري ترجيحه بأن الآية الكريمة واردة عقيب قوله تعالى: وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦

[الإسراء: 76] وأن المراد بهم أهل مكة ، ثم قال: "فإذ كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليخرجوه عن مكة، كان بينا، إذ كان الله قد أخرجه منها، أن قوله: وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ [الإسراء:80] أمر منه له بالرغبة إليه في أن يخرجه من البلدة التي هم المشركون بإخراجه منها مخرج صدق، وأن يدخله البلدة التي نقله الله إليها مدخل صدق".(58/15)

قال مكّي بن أبي طالب (٢٠٠٨):"

قال تعالى:{وقل ربّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق} يعني: مدخله المدينة حين هاجر إليها وخروجه من مكّة، قال ذلك: ابن عبّاس والحسن وقتادة وابن زيد. ودلّ على هذا ما تقدّم من قوله:{وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها}. (٦\4272)

والمراد بالصدق هنا كما حكاه الماوردي (د.ت) "الصلاح وحسن العاقبة"[267/3]، فكان دخوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة دخول صلاح وحسن عاقبة أثمر نجاحاً وفلاحا وإعلاء لكلمة الله ونشرا لدين الله، فكانت المدينة دار صدق وصلاح ، وتأمل وصف المدينة بمدخل الصدق واربطه بكونه صلى الله عليه وسلم قد جاء بالصدق كما حكى القرآن في قوله تعالى: وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣

[الزمر: 33]، مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ [الأحزاب: ٢٣]

فاجتمع الصدق كله بالمدينة؛ فالدار دار صدق، والرسول رسول صدق صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنون به رجال صدق، وهكذا ينبغي أن يكون الصدق حال وشعار أهلها وكل من حل بها. فاللهم اجعلنا من الصادقين بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

المبحث الثالث: (حسنة)

قال الله تعالى: وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ [النحل: 41]

الحسنة كما عرفها الراغب الأصفهاني(1412هـ) "يعبّر عنها عن كلّ ما يسرّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادّها"(235)

وهذا هو معنى الحسنة عموما ، وفي الآية الكريمة محل الدراسة حكي الطبري (٢٠٠٢) قولين :" الأول: أن المراد بها المدينة المنورة، وذكر بإسناده إلى قتادة أنه قال: هؤلاء أصحاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم ظلمهم أهل مكّة، فأخرجوهم من ديّارهم حتّى لحق طوائف منهم بالحبشة، ثمّ بوّأهم الله تعالى المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة. وجعل لهم أنصارا من المؤمنين" (٨/135).

وذكره الطبري بأسانيد عن ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وحكاه الواحديّ (١٩٩٤أ)عن مجاهد، والشّعبيّ، والحسن، وقتادة" (٣/63).

والقول الثاني :أن المراد بالحسنة في الآية الكريمة : الرزق الحسن، أو الرزق ، وقال ابن كثير: عقب ذكره للقولين:"وَلَا مُنَافَاة بَيْن الْقَوْلَيْنِ فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَسَاكِنهمْ وَأَمْوَالهمْ فَعَوَّضَهُمْ اللَّه خَيْرًا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّه بِمَا هُوَ خَيْر لَهُ مِنْهُ وَكَذَلِكَ وَقَع، فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وَحَكَّمَهُمْ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، فَصَارُوا أُمَرَاءَ حُكَّامًا، وَكُلٌّ مِنْهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا".

قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : معنى (لنبوئنهم) : لنحلنهم ولنسكننهم ، لأن التبوء في كلام العرب الحلول بالمكان والنزول به.

إذا فالمدينة المنورة هي حسنة الدنيا التي أوتيها المهاجرون،وهي رزق الله الذي رزقهم إياه في الدنيا ، وما ينظرهم عند الله اعظم وأجزل.

وإن هذا الحُسْن في المدينة المنورة لا يزال باقيا ومستمراً وسيظل كذلك إلى ما شاء الله، وهو حسن ظاهري وباطني ، حيث تنشرح الصدور بسكناها ، وتحل البركة بطعام أهلها وقوتهم، وتأنس النفوس وتطمئن في رحابها، ومن ذاق عرف ، ومن حل بها وجد فيها ما لا يجده في غيرها من الدور والبلدان ، فهنيئا لأهلها بحسنت

بركة والراحة ما لا يجده في غيرها من البلدان. ورزق الله كل راغب زيارتها والاقتباس من حسنها وجمالها.

المبحث الرابع: (الأرض)

قال ابن الجوزي (1984):" ذكر بعض المفسِّرين أنّ الأرض في القرآن على سبعة عشر وجها: الأوّل: أرض الجنّة. الثّاني: مكّة. الثّالث: أرض المدينة. ومنه قول الله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ [النساء:97]

وقوله فيها: ۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠ [النّساء:١٠٠]، وفي [العنكبوت:٥٦] : يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ وفي (الزّمر: ١٠): قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠ .(189/188/١٨٧).

وقال الطّبريّ(٢٠٠٢):" واختلف أهل التّأويل في الّذين كادوا أن يستفزّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليخرجوه من الأرض. وفي الأرض الّتي أرادوا أن يخرجوه منها، فقال بعضهم: الّذين كادوا أن يستفزّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من ذلك اليهود. والأرض الّتي أرادوا أن يخرجوه منها المدينة، ثم ذكر الطبري بإسناده إلى المعتمر بن سليمان، عن أبيه، قال: زعم حضرميّ أنّه بلغه أنّ بعض اليهود قال للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: إنّ أرض الأنبياء أرض الشّام، وإنّ هذه ليست بأرض الأنبياء، فأنزل

الله:{وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها}(٩\164). وهذا الأثر ضعيف لانقطاعه كما هو ظاهر.

وقال ابن كثير (2002) في تفسير هذه الآية:" قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بسكنى الشّام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف لأنّ هذه الآية مكيّة، وسكنى المدينة بعد ذلك، وقيل إنّها نزلت في تبوك وفي صحته نظر، روى البيهقيّ عن الحاكم، عن الأصمّ، عن أحمد بن عبد الجبّار العطارديّ، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرّحمن بن غنم: أنّ اليهود أتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقا أنّك نبيّ فالحق بالشّام فإنّ الشّام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلّا الشّام، فلمّا بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السّورة:{وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها} إلى قوله {تحويلا} فأمره الله بالرّجوع إلى المدينة، وقال فيها محياك ومماتك ومنها تبعث، وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أنّ هذا ليس بصحيح، فإنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يغزُ تبوك عن قول اليهود، وإنّما غزاها امتثالا لقوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ [التوبة: 123]

ولقوله تعالى: قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ [التوبة: 29] وغزاها ليقتصّ وينتقم ممّن قتل أهل مؤتة من أصحابه والله أعلم" (٣\1104).

ولكن ابن حجر (د.ت.)، في شرح الحديث رقم(٤٤١٥) قال عنه:" إسناده حسن مع كونه مرسلا" (١١٢\٨) .وتبعه على ذلك العيني (د.ت.)، إذ قال:" وهو مرسل بإسناد حسن" (١٨\45).

كما رواه البيهقيّ (١٩٨٨)، في باب عنونه بقوله: باب ما روي في سبب خروج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى تبوك وسبب رجوعه إن صحّ الخبر فيه (٥\254).

وقد روى ابن أبي حاتم (١٩٩٨) هذا الأثر مرسلا عن عبد الرّحمن بن غنم رضي الله عنه أنّه قال:" إنّ اليهود أتوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: إن كنت نبيّا فالحق بالشّام، فإنّ الشّام أرض المحشر وأرض الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلّا الشّام، فلمّا بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السّورة:} وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ إلى قوله {تحويلا} فأمره بالرّجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك وفيها تبعث".

وقال السّمعاني (١٩٩٧) في تفسير هذه الآية:" والأرض ههنا هي المدينة، وهذا قول معروف" (٣\267).

قلت: هو قول محتمل في هذه الآية الكريمة، والآثار الواردة ليس فيها أثر صحيح يعتمد عليه ويكون حجة ، والسباق يرجح أن المراد بالأرض أرض مكة وليس المدينة ، لكون اليهود لم يسبق لهم ذكر في الآيات ولكون الآية مكية نزلت في مكة ، ولذلك قال الطبري رحمه الله:"وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول قتادة ومجاهد، وذلك أن قوله وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ [الإسراء: ٧٦] في سياق خبر الله عز وجل عن قريش وذكره إياهم، و لم يجر لليهود قبل ذلك ذكر، فيوجه قوله {وإن كادوا} إلى أنه خبر عنهم، فهو بأن يكون خبرا عمن جرى له ذكر أولى من غيره." (15/ 20).

المبحث الخامس: (السبيل)

قال الله عز وجل: إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ [النساء:98-99]

أخرج عبد الرزاق الصنعاني (١٩٩٨) بإسناده إلى عكرمة في قوله تعالى:{لا يستطيعون حيلة} قال: مخرجا {ولا يهتدون سبيلا} قال: طريقا إلى المدينة" (473/١).وأخرجه عنه ابن أبي حاتم (١٩٩٨)حديث(5875) والبغويّ (٢٠٠٢)، (ص٣٣٠)؛ البيهقيّ (٢٠٠٣)، (24\٩)، (رقم١٧٧٥٩)؛و الثّعلبيّ (٢٠٠٢)، (372\٣)؛ وابن الجوزيّ (٢٠٠٢)، (ص٣١٧)؛والطّبريّ (٢٠٠٢)، (٣٠٧\٤-٣٠٨).

قلت: ومعنى الآية يحتمل هذا المعنى ، فإن الهجرة كانت إلى المدينة، وإن هؤلاء المستضعفين لم يكونوا يستطيعون إليها سفرا، فعذرهم الله عز وجل بخلاف من لم يكن من أهل الأعذار ، فإنه يكون ظالما لنفسه إن مات غير مهاجر وهو قادر على الفرار بدينه من الفتن. فلا يقال بأن السبيل اسم من أسماء المدينة، بل المراد به أي سبيل وأي حيل يمكنه أن ينجو بها من الفتنة في الدين. والله أعلم

المبحث السادس: (القرية)

قال الله تعالى: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل:112]

أكثر المفسّرين على أنّ هذه القرية هي مكّة. ولكن نقل الطّبريّ(2002) قولا بأنّها المدينة. فقال:" وقال آخرون: بل القرية التي ذكر الله في هذا الموضع مدينة الرّسول الله صلّى الله عليه وسلّم.وذكر بإسناده إلى سليم بن نمير أنه قال: صدرنا من الحجّ مع حفصة زوج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعثمان محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه ما فعل، حتّى رأت راكبين فأرسلت تسألهما، فقالا: قُتِل. فقالت حفصة: والّذي نفسي بيده إنّها القرية. تعني المدينة الّتي قال الله تعالى: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل:112]

.(227/٨)

وقال ابن عطية (٢٠٠١) معلّقا على نقل الطّبريّ:" فأدخل الطّبريّ هذا على أنّ حفصة قالت: إنّ الآية نزلت بالمدينة ،وإنّها هي الّتي ضُربت مثلا، والأمر عندي ليس كذلك، وإنّما أرادت أنّ المدينة قد حصلت في محذور المثل، وحلَّ بها ما حلّ بالّتي جُعلت مثلا، وكذلك يتوجّه عندي في الآية أنّها قُصِد بها قرية غير معينة" (٣\426).

وقال ابن الجوزيّ (٢٠٠٢):" في هذه القرية قولان: أحدهما: أنّها مكّة. قاله ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والجمهور، وهو الصّحيح. الثّاني: أنّها قرية أوسع الله على أهلها...ونسب هذا القول للحسن.فأمّا ما يُروى عن حفصة أنّها قالت: هي المدينة، فذلك على سبيل التّمثيل، لا على وجه التّفسير. " (ص٧٩٧).

قلت وهذا تأويل حسن ، فكل قرية كفرت بأنعم الله ينطبق عليها المثل، وتحل بها العقوبة المذكورة في الآية الكريمة، ونعوذ برضا الله من سخطه وبمعافاته من عقوبته.

الخاتمة : نسأل الله حسنها

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأشهد ألا إله إلا الله فاطر الأرض والسموات وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطيبات الطاهرات ومن سار على دربهم واستن بسنتهم من المحيا إلى الممات

أما بعد

فبعد هذه الرحالة المباركة مع القرآن الكريم في حديثه تصريحا أو إبهاما عن المدينة المنورة نصل إلى نهاية تلك الرحلة التي أسأل الله أن يجعلها رحلة مباركة ، وأن يرزقنا القبول والإخلاص.

وهذه بعض النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا البحث:

أولا: أن المجتمع المدني كأي مجتمع بشري كان فيه الصالحون وفيه الطالحون ، فيه المؤمنون وفيه المنافقون الذي مردوا على النفاق وأوغلوا فيه، فعلى المؤمنين أن يحذروهم وأن يتنبهوا لكيدهم ومكرهم .

ثانيا: عاتب الله المتخلفين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا حث للمؤمنين في كل زمان ومكان على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

والذب عنه وعن سنته والتضحية بالغالي والرخص في سبيل ذلك ، فهو صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأموالهم

ثالثا: على المؤمنين أن يقتدوا برسول الله في الجهاد في سبيل الله، فروحه صلى الله عليه وسلم أعز روح وأغلاها، ومع ذلك كان يجاهد في سبيل الله ويعرضها للهلاك فعلى المؤمنين ان يقتدوا به صلى الله عليه وسلم

رابعا: تشرّفت يثرب بهجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليها وصارت المدينة النّبوية وطابة وطيبة الطيبة. وشرفُها به حيّا وميّتا صلوات ربي وتسليماته عليه.

خامسا: عيّن المفسّرون المدينة المنورة كتفسير لبعض مبهمات الآيات القرآنية، منها ما عضدته الآثار عن السّلف واللّغة، ومنها ما عارضه أقوال أقوى في الحجّة مما أدى إلى الحكم بضعف تلك الأقول.

سادساً: لا يشرف الإنسان بشرف المكان إن لم يرفعه الإيمان والإستقامة على شرع الله تعالى.

سابعا: جعل الله تعالى المدينة النّبوية دار صدق، دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل صدق، وهو الصّادق المصدوق بأبي هو وأمّي، إذ هيّأ الله له بها رجالا مدحهم سبحانه وأثنى على خصال فيهم باقتضاء الفطرة من الصدق والإيثار والبذل.

ثامنا: المدينة النّبوية حسنة الدّنيا، عوّض الله سبحانه وتعالى بها المهاجرين أرضهم وديارهم، وحُسنها ظاهريّ وباطنيّ وهو باق إلى ما شاء الله، يتجلى في انشراح صدور ساكنيها، وبركتها في معاشهم.

تاسعا: المدينة النّبوية الشّريفة يسكنها الصّالحون وغيرهم ممّن غلب عليهم النّفاق والشّقاق، وعلى المسلم الحذر والتّيقظ إذ هو كيّس فطن.

عاشراً: نصرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من لوازم الإيمان وفداؤه بالنفس وما دونها ممّا يُصدِّق ذلك.

حادي عشر: نصرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا تقتصر على نصرته في حياته، بل نصرته كلّما استجدّ الأمر في ذلك، وبمختلف صور النّصرة والذّود عن دينه وجنابه الشّريف.

ثاني عشر: يحقّق المسلم مرتبة العزّة في الإسلام بطاعة الله ورسوله وبها يتبوّأ أعلى درجات الحصانة الّتي يعصم بها دمه وماله. ولا معيار لها غيره.

ثالث عشر: المُحدث في المدينة لا يستحقّ شرف سكناها، وعلى وليّ الأمر تطبيق حكم الشّرع في نفيه عنها.

رابع عشر: عتاب الله تعالى لصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في تخلّفهم عنه لا يُبيح الطّعن فيهم أو غمزهم، فهو مقابَل بآيات كثيرة في تعديلهم والثّناء عليهم.

خامس عشر: السّكوت عن المُحدث في المدينة النّبوية والرّضى بفعله وإن لم يشاركه في الفعل قد يعرّض صاحبه لنقمة الله تعالى والدّخول في وعيده.

ويوصي الباحث في نهاية البحث بما يأتي:

أولا: يجب على ولاة الأمور والعلماء تعزيز مكانة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمدينة النّبوية في نفوس المسلمين خاصة مع الهجمة الغربية ضدّ شخص رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكلّ ما له صلة بدينه الحنيف.

ثانيا: لا تحملنّ أحد شدّة أو مرض أن يترك سكنى المدينة فعند مسلم (٢٠٠٣) من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول:" لا يصبر على لأوائها وشدّتها أحد إلّا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيّامة" (كتاب الحجّ، باب٨٦: التّرغيب في سكنى المدينة والصّبر على لأوائها وشدّتها، رقم١٣٧٧).

ثالثا: شرف المدينة خير على أهلها ومن أتاها لمن صلحت نيّته واستقام على الشّرع حاله، ومن استطاع الموت بها فليفعل فعند الترمذيّ (٢٠١١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:" من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنّي أشفع لمن يموت بها" (كتاب المناقب، باب٦٨: في فضل المدينة، رقم٣٩١٧).

رابعا: المحافظة على معالم المدينة الأثرية وصيانتها وترميمها. وإدراج زيارتها في مواسم الحجّ والعمرة.

خامسا: استحداث برامج ومقاطع قصيرة بلغات مختلفة على شبكات التّواصل الإجتماعي للتّعريف بدين الإسلام وأهم المحطّات في السّيرة النّبوية.

سادسا: تشكيل نوادي شبابية للقراءة والتّركيز على الحدّ الأدنى في التّعريف بسيرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

سابعا: المبادرة للكتابة بطريقة مبتكرة وجزئية في معالم المدينة النّبوية.

ثامنا: تكوين مجموعات شبابية فتية ناشطة في مجال السّياحة في المدينة النّبوية لتعريف الناس بمعالمها.

تاسعا: الولوج إلى عالم الأطفال وربطهم في سنّ مبكرة بمعالم المدينة من خلال المواقع الإلكترونية الخاصّة بالأطفال.

والحمد لله أولا وآخرا

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الباحث: د. ريان أحمد محرم الشيخ ناجي عبد السند

المراجع

الأزهريّ، محمّد. (١٩٩١). *معاني القراءات*. مركز البحوث في كلية الآداب-جامعة الملك سعود-

الأزهري، محمد. (2001). *تهذيب اللغة*. دار إحياء التراث العربي –بيروت.

الألوسي، محمود. (١٩٩٤). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع* المثاني. دار الكتب العلميّة.

البخاريّ، محمّد. (٢٠٠٤). *التّاريخ الأوسط*. دار الكتب العلميّة.

البخاريّ، محمد. (٢٠١٠). *الجامع الصّحيح المسند المختصر من أمور رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-* وسننه وأيّامه. المكتبة العصريّة.

البغويّ، الحسين. (٢٠٠٢). *معالم التّنزيل*. دار ابن حزم.

البيضاويّ، عبد الله. (١٩٩٧). *أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل*. دار إحياء التّراث العربيّ.

البيهقيّ، أحمد. (١٩٨٨). *دلائل النّبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة*. دار الكتب العلميّة. دار الرّيّان للتّراث.

البيهقيّ، أحمد. (٢٠٠٣). *السّنن الكبرى* (ط.٣). دار الكتب العلميّة.

التّرمذيّ، محمّد. (٢٠١١). *سنن التّرمذيّ*. دار ابن الجوزيّ.

الثّعالبيّ، عبد الرّحمن. (٢٠١١). *الجواهر الحسان في تفسير القرآن*. عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع.

الثّعلبيّ، أحمد. (٢٠١٥). *الكشف والبيان عن تفسير القرآن*. دار التّفسير.

ابن جزي، محمّد. (١٩٩٥). *التّسهيل لعلوم التّنزيل*. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ابن الجوزيّ، عبد الرّحمن. (٢٠٠٢). *زاد المسير في علم التفسير*. المكتب الإسلاميّ. دار ابن حزم.

ابن أبي حاتم، عبد الرّحمن. (١٩٩٩٨). *تفسير القرآن العظيم* (ط.٣). مكتبة مصطفى الباز.

الحاكم، محمّد. (١٩٩٠). *مستدرك الحاكم*. دار الكتب العلميّة.

ابن الحجّاج، مسلم. (٢٠٠٣). *صحيح الإمام مسلم*. دار ابن الهيثم.

ابن حجر، أحمد. (د.ت.). *فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ*. المطبعة السّلفية.

ابن حنبل، أحمد. (١٩٩٥). *مسند الإمام أحمد بن حنبل*. دار الحديث.

ابن حنبل، أحمد. (٢٠٠١). *مسند الإمام أحمد بن حنبل*. مؤسّسة الرّسالة.

أبو حيّان، محمّد. (١٩٩٩). *البحر المحيط في التّفسير*. دار الفكر.

الخازن، عليّ. (١٩٩٥). *لباب التّأويل في معاني التّنزيل*. دار الكتب العلميّة. ٩٧٩). التّصاريف لتفسير القرآن ممّا اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه

الدّانيّ، عثمان. (٢٠٠١). *المكتفى في الوقف والإبتداء*. دار عمّار.

الرّازيّ، محمّد. (١٩٩٩). *مفاتيح الغيب* (ط.٣) .دار إحياء التّراث العربيّ.

الراغب الأصفهاني

الزّمخشريّ، محمود. (١٩٨٧). *الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل* (ط.٣). دار الكتاب العربيّ.

ابن أبي زمنين، محمّد. (٢٠٠٢). *تفسير القرآن العزيز*. الفاروق الحديثة.

أبو زهرة، محمد. (د.ت). *زهرة التفاسير*. دار الفكر العربي.

السعدي، عبد الرحمن.(2000). *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. مؤسسة الرسالة-بيروت.

أبو السّعود، محمّد. (د.ت.). *إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم*. دار إحياء التّراث العربيّ.

ابن سلام، يحي. (١٩٧٩). *التّصاريف لتفسير القرآن ممّا اشتبهت أسماؤه وتصرّفت معانيه*. الشّركة التّونسيّة للتّوزيع.

ابن سلام، يحي. (٢٠٠٤). *تفسير يحي بن سلام*. دار الكتب العلميّة.

ابن سليمان، مقاتل. (٢٠٠٢). *تفسير مقاتل بن سليمان*. دار إحياء التّراث العربيّ.

السّمرقنديّ، (د.ت.). *نصر*. بحر العلوم.

السّمعانيّ، منصور. (١٩٩٧). *تفسير القرآن*. دار الوطن.

السّمهوديّ، عليّ. (١٩٩٨). *وفاء الوفاء*. دار الكتب العلميّة.

السّيوطيّ، عبد الرّحمن. (٢٠٠٢). *لباب النّقول في أسباب النزول*. دار الفجر للتّراث.

السّيوطيّ، عبد الرّحمن. (د.ت.). *الدّر المنثور*. دار الفكر.

الشهاب، أحمد.(د.ت). *حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي*. دار صادر–بيروت.

الشّوكانيّ، محمّد. (١٩٩٣). *فتح القدير*. دار ابن كثير. دار الكلم الطّيّب.

الصّنعانيّ، عبد الرّزّاق. (١٩٨٢). *مصنّف عبد الرّزّاق الصّنعانيّ*. المجلس العلمي.

الصّنعانيّ، عبد الرّزّاق. (١٩٩٨). *تفسير عبد الرّزّاق الصّنعانيّ*. دار الكتب العلميّة.

ابن أبي طالب، مكّيّ. (٢٠٠٨). *الهداية إلى بلوغ النّهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه*. مجموعة بحوث الكتاب والسّنّة. كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة جامعة الشارقة.

الطاهر بن عاشور، محمد. (1984). *تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد*. الدار التونسية للنشر –تونس

الطّبرانيّ، سليمان. (د.ت.). *المعجم الكبير*(ط.٢). مكتبة ابن تيميّة.

الطّبريّ، محمّد. (٢٠٠٢). *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. دار ابن حزم. دار الأعلام.

ابن عطية، عبد الحقّ. (٢٠٠١). *المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. دار الكتب العلميّة.

العليميّ، مجير الدّين. (٢٠٠٩). *فتح الرّحمن في تفسير القرآن*. دار النّوادر.

العيني، محمود. (د.ت.). *عمدة القاري بشرح صحيح البخاريّ*. دار إحياء التّراث العربيّ.

الفيروز آبادي، محمّد. (١٩٩٦). *بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز*. المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة. لجنة إحياء التّراث.

القاسميّ، محمّد. (١٩٩٧). *محاسن التّأويل*. دار الكتب العلميّة.

القاضي عيّاض، عيّاض. (د.ت.). *مشارق الأنوار على صحاح الآثار*. المكتبة العتيقة. دار التّراث.

القرطبيّ، محمّد. (1964)، (٢٠٠٥). *الجامع لأحكام القرآن*.، دار الكتب المصرية ، دار الكتب العلميّة.

القسطلّاني، أحمد. (١٩٠٥). *إرشاد السّاري بشرح صحيح البخاريّ* (ط.٧). المطبعة الأميريّة.

ابن كثير، إسماعيل. (١٩٩٧). *البداية والنهاية*. دار هجر.

ابن كثير، إسماعيل. (٢٠٠٢). *تفسير القرآن العظيم*. دار الفكر.

الكرمانيّ، محمود. (٢٠٠٨). *لباب التّفسير*.

ابن ماجة، محمّد. (٢٠١١). *سنن ابن ماجة*. دار ابن الجوزيّ.

الماورديّ، عليّ. (د.ت.). *النّكت والعيون*. دار الكتب العلميّة.

ابن الملقّن، عمر. (٢٠٠٨). *التّوضيح لشرح الجامع الصّحيح*. دار النّوادر.

النّحاس، أحمد. (١٩٨٩). *معاني القرآن*.

النّسفيّ، عبد الله. (١٩٩٨). *مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل*. دار الكلم الطّيّب.

النّعمانيّ، عمر. (١٩٩٨). *اللّباب في علوم الكتاب*. دار الكتب العلميّة.

الواحديّ، عليّ. (١٩٩٤ب). *الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. دار القلم.

الواحديّ، عليّ. (١٩٩٤أ). *الوسيط في تفسير القرآن المجيد*. دار الكتب العلميّة.

الواحديّ، عليّ. (٢٠٠٤). *أسباب النّزول*. دار الكتاب الحديث.

الواحديّ، عليّ. (٢٠١٩). *التّفسير البسيط*. عمادة البحث العلمي-جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة